الناقد المسرحى مهدى الحسيني

اسمح لى أن نتوجه نحو موضوع مختلف ألا وهو كيف تكّون مهدى الحسنى الناقد والكاتب؟ البدايات والدراسة والخبرة العلمية ؟

بحكم أن بداية احتكاكى بالعمل الفكرى مبكراً، هو أننى كنت أنتمى إلى تيارات معارضة محمّلة بالانتقاد للواقع الاجتماعى والسياسى وصولاً إلى الواقع الإبداعى على مستوى قراءة الأدب المسرحى، وعلى مستوى المشاهدات المسرحية التى أتيحت لى منذ الصبا وباكورة الشباب، لذلك أجدنى قد توجهت فى مسارى التعليمى إلى أن التحق بالمعهد العالى للفنون المسرحية عام ١٩٥٨م قسم النقد، وفوجئت بعدد مهول من الأساتذة المرموقين يشكلون لجنة الامتحان وكنت قد تجاوزت الثامنة عشر بقليل، وجدت فى اللجنة التى كان يرأسها الأستاذ الدكتور محمد مندور ذو التاريخ السياسى النظيف والصيت الواسع والنفوذ الكبير داخل الحياة الثقافية والفنية المصرية. وكان فى اللجنة أيضاً الأستاذ درينى خشبة المترجم المتخصص و المثقف المرموق، ومصمم ديكورات الأوبرا المصرية الأستاذ لويس مليكة وكامل يوسف وعبد الرحمن صدقى وأستاذ الأدب الإغريقى و اللاتينى محمد كامل حسين وغيرهم... أسماء

كبيرة جدا أكبر من أن يتحملها عودى الذى كان مازال يافعاً ضعيفاً (عود أخضر) وكنت مستعداً لامتحان القبول بالمعهد حيث سارعت بمشاهدة بعض المسرحيات التى كانت تعرض على خشبة المسرح القومى حين ذاك مثل مسرحية سلطان الظلام تأليف الكاتب الروسى الكبير تولستوى وبطولة سميحة أيوب و محمد الدفراوى وعلى خشبة مسرح دار الأوبرا مثل مسرحية ثورة الموتى، تأليف الأميركى إيروين شو وبطولة محمد الطوخى والصاعد حينها عبدالله غيث ثم شاهدت زقاق المدق عن كاتبها نجيب محفوظ وإخراج كمال ياسين إعداد أمينة الصاوى وبطولة نجوم فرقة المسرح الحر، والمسرحية الصينية نائبة النساء إخراج نورالدمرداش، وكنت قرأت بعض مؤلفات نعمان عاشور و الفريد فرج استعداداً لهذا الامتحان ذى الرهبة، وقرأت بعض مقالات الدكتور مندور التى كان ينشرها فى مجلة الشرق حول حقيقة شخصية شكسبير وحول فن الأوتشيرك الذى برع فيه الكاتب الروسى العظيم مكسيم جوركى وكنت معجباً بالأفكار التى كان يطرحها الدكتور مندور فى كتاباته النقدية تلك، بالإضافة إلى أننى حرصت على قراءة عدد من مسرحيات وليم شكسبير وبن جونسون وإبسن استعداداً لامتحان القبول، فسألنى الدكتور مندور هل تقرأ مسرحيات؟ فأحبته بالإيجاب قال: ماذا قرأت؟ فكررت عليه عناوين مثل (هاملت وعطيل والليلة الثانية عشر وروميو وجوليت) فطلب منى أن ألخص له مسرحية الليلة الثانية عشر، وسألنى عن الشخصية التى لفتت انتباهى فرددت عليه بعفوية إنه (مالفوليو) الذى كان موضع

سخرية باقى شخصيات المسرحية، لأنه كان يلبس الجوارب القصيرة ولا يرتدى السراويل الكلاسيكية الشائعة لدى نبلاء أوربا حينذاك وأقرانهم، كأفضل زى يرتديه أبناء الطبقات الراقية، فسألنى الدكتور مندور : لماذا أعجبك (مالفوليو)؟ قلت له: أعجبنى خروجه عن التقاليد الكلاسيكية مما يدل على أنه يمثل قوى جديدة فى المجتمع الإنجليزى، ثم سألنى: ماذا يمثل؟ قلت له بتردد : كان يمثل البورجوازية الصاعدة بثقافتها الجديدة فى مواجهة التقاليد الإقطاعية. هنا أغرق الدكتور مندور فى الضحك إعجابا بتحليلى وأنهى الامتحان .

وخرجت وكلّى ظن أننى فشلت وقلت لنفسى: لم يبق لى أمل إلا الامتحان التحريري، وكنت حريصاً على أن أملأ ورقة الإجابة بأفكار مسرحية ذات بعد فكرى كنت أعتقده، (ومن الجدير بالذكر أن ورقة الإجابة هذه استخدمها وكيل نيابة أمن الدولة احمد موسى ابوحرام ضدى حينما عرضها على خبير الخطوط الحكومى ليثبت أن ما ورد فى أحد مخطوطات القضية هو خط مطابق لخطى الوارد فى ورقة الإجابة!!)، إلا أنه حين ظهرت النتيجة فوجئت أننى الأول على المقبولين فى دفعة قسم النقد عام ١٩٥٨م، الأمر الذى أثار غيرة بعض العناصر، ولما بدأت الدراسة كنت من أبرز الطلاب المنتظمين الحريصين على التعرف على هذا العالم الكبير الواسع أعنى الفن المسرحى (أبو الفنون) وأثناء الدراسة خلال الأيام القليلة التى قضيتها بالسنة الأولى حتى قبض علىَّ فى أول يناير ١٩٥٩م بتهمة تكوين تنظيم سرى مسلح هدفه قلب نظام الحكم!! والعجيب

أن ضباط المباحث لم يجدوا فى أوراقى ما يعنى هذا الكلام، ولم يجدوا فى درج مكتبى بالمنزل (قلامة أظافر) ومضت بى أيام التعذيب والإهانة والحرمان وحوكمت أمام مجلس عسكرى عالى رأسه الفريق أول هلال عبد الله هلال مدير سلاح المدفعية ونادى ضباط الجيش وبعدما مثلت أمام المحكمة العسكرية فى محاكمة مطولة صدر الحكم ضدى بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات وأقمت منها فى سجون عبد الناصر أربعاً وستين شهراً لأخرج فى ٢٨ ابريل عام ١٩٦٤م وكلى شوق لاستكمال الدراسة ومشاهدة المسرح المصرى آنذك، خاصة وأننا كنا نقوم فى سجن الواحات الخارجة ببعض الأنشطة المسرحية، وقد تعرضت لذلك فى ثلاث مقالات بصحيفة القاهرة.

لم تنقطع بى أيام السجن عن عشق المسرح وتأكدت لى رابطتى به والارتباط بحركته الاجتماعية والإبداعية، ومضت بى أيام الدراسة بعدما قبلت طالباً عائداً- بعد ضغوط - بالسنة الأولى بالمعهد قسم النقد كى أتخرج عام ١٩٦٨ فى هذه الأحيان كان الفريد فرج قد أنهى رائعته سليمان الحلبى وكان نعمان عاشور يدرّس لنا حرفية التأليف المسرحى ونظراً لشخصيته البسيطة الإنسانية التى كانت تجذب تلامذته إليه من أمثالى، توجهت إلى إجراء حوار كبير معهما، لم ينشرا كاملين حتى الآن ولكن لدىّ مسوداتهما كاملة، رغم أنه نُشر جزء من حديثى مع الفريد فرج فى عدد خاص من مجلة المسرح فى يناير عام ١٩٦٨، وفى عدد فبراير من نفس العام نشر جزء كبير آخرمن حوارى مع نعمان عاشور. هذان الحديثان مازال يرجع إليهما الباحثون

الجادون عن العالم المسرحى لكل من الفريد ونعمان. غير أننى لم أعتبر نفسى بعد هذا النشر ناقداً مسرحياً، بل واصلت التعرف على نتاج كتابنا المسرحيين والحياة المسرحية المصرية فكانت هذه هى الصفحة الأولى فى سبيل تكوينى كناقد مسرحي.

- كنتَ قبل ذلك قد حدثتنى عن الأستاذ الدكتور «فخرى قسطندي» ودوره فى تكوينك فماذا عنه؟

كنا نشعر أننا مازلنا صغارا وجهّالاً إزاء موسوعية مندور وعلمه الرفيع الواسع، فما أن التقينا بأستاذ له شخصيته المميزة وله بريقه الخاص حتى تبينا ضرورة أن تكون موسوعياً حين تتعامل مع فن المسرح، لأنه فن يشمل كل شى يتعلق بالبشر، فحين حاضرنا الأستاذ الدكتور فخرى قسطندى فوجئنا بشخصية موسوعية عارفة بدقائق النفس البشرية، فهو مثلا يربط بين شعر شاعر عربى قديم هو طرفة بن العبد الذى قال (أرى قبر نَحام بخيلٍ بماله ..... كقبر غوى فى البطالةِ مُفسدِ) يقول هذا وهَو يشرح لنا مشهد حفار القبور فى مسرحية هاملت ويتساءل فى النهاية: هل قرأ شكسبير أشعار ابن العبد أم أن ابن العبد قد قرأ ما كتبه شكسبير؟، وتسائل أيهما أسبق؟! هناك معانى سرّبها فخرى قسطندى هى وحدة التراث الإنسانى وترابطه، فأنشأ فى أذهاننا حاسّة الربط بين الأشياء وحاسّة المقارنة، ثم تابع من خلال تعريفنا بعالم تشيكوف الأدبى كى يكشف لنا دقائق النفس البشرية والدوافع الكثيرة الخفية التى تحكم السلوك الإنسانى وتحركه، ولكنه فى

سبيل ذلك لم يكن يستنكر أن يقوم بتمثيل أدوار نسائية لنا، كأن يقوم بتمثيل مشهد عودة مدام رانيفسكى من فسحتها فى باريس ومعها ياشا خادمها الخاص وقد تمتع بلذائذ باريس، فيعود ضائقاً بذباب روسيا متأففاً من هذا البلد الخامل بينما يقبع حفيد العبد القِن لباخين لايفتأ يهُز بحذائه الجلدى الغليظ فى وجه الجميع مطمئناً أنه حتماً سوف يشترى بستان الكرز من صاحبته السيدة رانيفسكى المسرفة، والتى سوف تبيع له البستان لقاء سداد ديونها وإقالتها من عثرتها المالية، وبالفعل يتسلم لباخين البستان ويقطع أشجار الكرز بلا رحمة ولا أسف، ثم يعلن أنه سوف يُقسّم هذه الأراضى إلى قطع صغيرة ليبنى فيها الأثرياء الجدد الفيلات! !. لهذا أدركت لماذا اختار العبقرى نجيب سرور هذه المسرحية بالذات كى تصبح باكورة إخراجه المسرحى بعد عودته من المنفى الاختيارى فى موسكو وبودابست ؟، لعله كان مثل نذير العاصفة الذى يتنبأ بالتحوّلات الجسيمة التى ستمر بها مصر حين نكبت فى نيلها ومزارعها وحقولها وفلاحيها وحدائقها لتصبح الأراضى الزراعية مجرد تقسيم للبناء، هنا تصبح مسرحية بستان الكرز هى دراما التدهور الاجتماعى والإيكولوجى الجسيم، واليوم لم نعد نرى حقولاً ولا أنهاراً ولا ترعاً ولا أشجاراً ولا هدهداً ولا عصافير، أصبحت عزبة الورد- أى مصر- مقلباً للنفايات.

هكذا كان أستاذنا فخرى قسطندى يشرح لنا المعانى الخفية الكامنة خلف النص التشيكوفي، وهكذا نعى نجيب سرور الشخصيات الرفيعة فى هزيمتها وتقاعسها أمام أعداء التطور،

ومن المضحك حقاً أنه صمم كمخرج شخصية التلميذ الأبدى هذا الحالم بمستقبل أفضل!! أن يظل طوال العرض المسرحى يدخل ويخرج باحثاً عن فردة حذائه الضائعة، والعجيب أن يلتحم فكر فخرى قسطندى الليبرالى بفكر فنان ثورى مثل نجيب سرور، ذلك فقط لأنهما كانا مهمومينْ بالكشف عن الحقائق البشرية، هنا قامت علاقة شخصية مبنية على الأخوة والعطف من جانب أستاذى الدكتور فخري، والعجيب أننا أثناء ركوبنا الأتوبيس الذى كان يوصلنا إلى شارع جمال الدين الأفغانى المؤدى للمعهد، كنا نكتشف أنه يركب فى الدرجة الثانية!! نكتشفه بين الزحام ولكننا أيضا كنا نكتشف شغفه بمتابعة ثرثرتنا وسلوكياتنا الصغيرة التافهة، ذلك أنه شغوف أصلاً بالسلوك الإنساني، فيراقبنا ككائنات لطيفة صغيرة ويدفع لنا تذاكر الأتوبيس بالرغم من أنه كان يركب الدرجة الثانية معنا!، وكنا بعد نزولنا ندخل معه المحاضرة فى نفس الوقت، وإذا ما صادف وحضر بسيارته الفولكس البيضاء فإنه كان يستضيف واحداً منا أو اثنين فى مقاعد هذه السيارة الصغيرة، ولكنه كان يستأثر بى كى يدعونى إلى كوب من الشاى فى أحد المقاهى الأثيرة، إما فى ميدان التوفيقية أو فى الزمالك، ويظل يطرح حيرة عقله فى تساؤلات لا نهاية لها، ويحكى قصصاً عن العقاد والمازنى لم تكن داخل المنهج الدراسى، ويظل يتكلم ويتكلم ولكننا لم نكن ندرك أن شفتيه لا تنطق إلا دُرراً، لعلنا استوعبنا قليلاً منها، فأدركنا قيمتها بعد ذلك! فظللت أدين له بالولاء، لقد فهمت من خلاله من هو

وليم شكسبير ومن هو انطون تشيكوف و شون أوكيزى الكاتب الاسكتلندى الذى كان أستاذنا نعمان عاشور عاشقاً له، وعرفنا منه أشياء كثيرة عن يونسكو و صمويل بيكيت حين كان بعض المدرسين المتحذلقين يلقون أمامنا بفوازير فجة عن الفرق بين اللامعقول والعبث، وكأنهم يلعبون بها كلَعِب الحواة بالكرات الملونة، ولما كنا صغاراً فكان من السهل أن ننبهر، ولكن فخرى قسطندى علمنا أكثر وأكثر، حيث نمّى فينا الحس الإنسانى بجانب الحس النقدى عن طريق إدراك المفارقة الكامنة فى الدراما والتعرف على قوانينها، والتى لها صميم الصلة بالقوانين التى تُحرّك الحياة ذاتها، فكان يقول ببساطة: «إذا أردتم أن تعرفوا الكوميديا فقولوا إنها حفلة تحتفى بالحياة» وبينما يعرّف التراجيديا «بأنها لابد وأن تنتهى بالتفاؤل وليس بالحزن، فيخرج منها الإنسان أقوى مما دخل»، كان أستاذنا يطرح القوانين والأفكار وتاريخ الفكر الإنسانى دفعة واحدة بل وفى جملة قصيرة مكثفة مقتضبة وببساطة متناهية حين يغوص بنا فى العلاقة بين ديكاميرون و بوكاشيو و من جهة وبين ألف ليلة وليلة من جهة أخرى، وحين ينبهنا إلى أن ترويض النمرة لشكسبير ليست إلا سلخة بسيطة سلخها شكسبير من حكاوى ألف ليلة وليلة حكاية أبو الحسن المغفل وحين يربط بين جحيم دانتى و أبوالعلاء المعرّى !!!

اما أستاذنا د.محمد مندور فكان يربط بين السياسة والأدب والتاريخ والمجتمع، مثلما كان فخرى قسطندى يربط بين كل هذا معاً، ولكن على طريقته الخاصة!!، حتى فوجئت بأن هذا

المعلم القبطى يحفظ آيات القران الكريم أفضل من بعض مدّعى الدين الإسلامى، كما قرأ عبقريات العقاد واستوعبها وتحمس لها، وأدرك تاريخ الأدب المصرى منذ الأيام لـ طه حسين وعودة الروح لـ توفيق الحكيم. كان متابعاً للحركة الأدبية والفلسفية منذ منتصف الثلاثينيات، كما كان قارئاً نهماً فضولياً للمعرفة، ومع ذلك لم يكن يتوانى عن تعليمنا لحظة واحدة وتبصيرنا.

و أيضاً كان من حسن حظنا أن قام بمحاضرتنا شخصية فذة وفريدة من نوعها رغم أنه كان صاحب حزن ومرارة وتجربة محمّلة بشتى ألوان الإحباط هو المفكر الكبيرأحمد رشدى صالح رغم أن جدوله كان أن يُدرّس لنا (فقط! !) مادة بسيطة هى ما يسمى بتاريخ الصحافة، لم يتيحوا له الفرصة أن يقدّم لنا شيئا فيه ثقل علمى مثل محمد مندور وفخرى قسطندى ومع ذلك كانت كلماته المقتضبة الحزينة تُلقىَ علينا فى صيغ محكمة أشبه بالقوانين، فهو رجل متفرد، كما لو كان يترسم خطى ابن خلدون الذى كان قد كتب عنه كتاباً رائعا فى باكورة إصدراته وشبابه بعنوان رجل فى القاهرة، فمثلا نبهنا أنه لا يوجد شخصٌ بعينه فى التاريخ الأدبى والاجتماعى يسمى باسم ابن عروس، إنما كانت هذه الأشعار الشائعة المنقولة عن شخص بهذا الاسم، هى نتاج حركة ثورية قام بها جماعة من المتمردين على حكم المماليك فى عهد حاكم مملوكى يسمى سودون كان قد هاجم مساكن المجاورين الفقراء الذين أرسلتهم أسرهم البعيدة المُبْعدة عن القاهرة والحياة ذاتها، كما لو كانوا مبعوثى هذه الطبقة الفقيرة إلى العاصمة

حيث جامع الأزهر ومراكز الحكم وقمم القوى الاجتماعية. فما كان منه إلا أن داهمهم وألقى بصناديق كتبهم فى فرع من النيل كان يجرى قريباً من الأزهر حينذاك، وشرّدهم وطردهم فانتشروا فى البلاد يهاجمونه بالأزجال الساخرة والأشعار الهزلية، ومع مرور الزمن تخمرت هذه المربعات وتعتقت و أظن ان منها على سبيل المثال الزجل التالى أو التجريسة التى كان يغنيها «المحبّذين» أو«المحبّظين» أو«المحبّظاتية» الجائلين على إيقاع الطبله أوالدفوف ألا وهو: « ياليل ياعين ماعرفش أكدب .. الضفدعه راكبه المركب .. والقط الاعمى حارسها .. وأبو فصاده ريّسها « حتى أصبحت أشبه بالحكمة والدرس المعلم، وظل الأمر كذلك حتى جاء حاكم مملوكى أكثر حكمة وصالحهم وأعادهم إلى رحاب جامع الأزهر، وأجرى عليهم الجراية ووزع عليهم الهبات والعطايا و أعاد تصنيع صناديقهم، و من هنا نشأ حى «الصنادقية»، ومثلما ألقى لنا أستاذنا الضوء على بن خلدون و عبدالله النديم والأفغانى ومحمد عبده ويعقوب صنوع و مقهى «متاتيا» الشهير بميدان العتبة الخضراء أو ميدان البوسطه، القى أستاذنا الضوء من زواياه المختارة الخاصة جداً، فإنه نبهنا أيضاً إلى زيف صحافة الخبر وكذبها وتضليلها المتعمد، على عكس صحافة الرأى ونشر الفكر.

كان رشدى صالح يلقى أفكاره بحكمة وبساطة لانحس بها ولا ندرك أعماقها المقصودة للتو، بل تظل معلقة فى رؤوسنا حتى نكتشف على حين غرة أننا فهمنا!! ومع ذلك كنت أستغرب بينى وبين نفسى، كيف يظل هذا الرجل محتفظاً

بماركسيته النقية وغير المغرضة، رغم أنه سلّم بالهزيمة أمام السلطة عام ١٩٥٩م ورغم أنه راح يكتب فى دار أخبار اليوم رغم أن فكره مضاد تماماً لفكرهم، كنت أسأل نفسى هل هذا الرجل على هذا القدر من الدهاء والمراوغة؟ . هل كان هذا الرجل هو ابن خلدون الجديد ؟ هو مثل غيره من الافذاذ الذين لم يأخذوا حقهم و لم تفهمه الامة المصرية حق المعرفة الواجبة .

يبدو أنه كان مكتوب علينا أن نفاجأ بالصدمات واحدة تلو الأخرى!! فيموت محمد مندور بعد أن قلّ بعضهم الأدب عليه!!؟ بينما كان فى انتظار مقابلة أحد المسئولين فى مجلة روزاليوسف من ذوى أصحاب المناصب المتعددة، رحل أستاذنا الكبير عن سبعة وخمسين عاماً فقط، وحلقه مختنق بدموع الإهانة، لعل بعضهم هَدأ سِرّه واستراح حين رحل شيخ المفكرين والنقاد والمعلمين وأستاذ الأساتذة. ثم بعد رحيله بنحو عامين تفاجئنا كارثة أخرى وهى رحيل ابن خلدون الجديد رشدى صالح ليحل بعده بعض الصغار برؤوسهم الأفعوانية وقد تربو فى أحضان منظمة الشباب الناصرية و التنظيم الطليعى السرى ليتساءلوا بصفاقة من هو أحمد رشدى صالح هذا!!؟ وماذا فعل فى مجال الفلكلور؟ متجاهلين أن مسوّدات كتابيه عن الأدب الشعبى و فنون الأدب الشعبى كانا من أهم مستندات القضية التى اتهم ظلما فيها بتدبير انقلاب ضد السلطة العسكرية الجديدة، وحوكم وظل حبيس السجن لثلاث سنوات، ثم تم اعتقاله ثانية فى مارس ١٩٥٩ م وألقوا به فى معتقل العزب بالفيوم يؤرّقه القلق على أوراقه ومسودات كتبه

الجديدة المصادرة، تعبث بها أصابع ضباط المباحث والمحققين! أيضا كان قلقاً على مصر كلها وعلى أسرته الصغيرة التى تركها تحت رحمة زبانية النظام وعملائه، فهو لم يزل الصعيدى ابن قرية الشيخ تمىّ مركز أبوقرقاص منيا . وطبعاً لا أُنكر فضل أساتذة كثيرين مثل الشاعر كمال نشأت الذى كان يختار لنا نماذج من الشعر المهجرى واللبنانى والصينى للشاعر ووتى الشهير بالقصيدة التى يأسف فيها بهجرة حبيبته له ذات المنامة الحريرية الصفراء، ولا أنسى أنه غيَّر ذائقتنا الشعرية التى أصابتها حالة الشعر الكاذب والأناشيد الرائجة فى العهد الناصرى المحمّلة بالخشونة والغلظة، فوازن قبحها بشرح نظرية محمد مندور عن الشعر المهموس، أما محاضرة الفنان الكبير محمود مرسى فكانت لقاءً إنسانياً ثقافياً يتميز بسعة الأفق ودفء الحوار المتبادل بسماحة وندّية بيننا وبينه، ولايبقى حسب المثل الفلاحى: «مايبقى على المداود إلا شرّ البقر» إلا بقية من المدرسين والمواد، فقد ضمتهم إدارة المعهد ضمن جدولنا فقط، لكى يعطوا المشاغبين من أمثالى درجة الحد الأدنى حتى لا يصبحوا فى مقدمة الصفوف، وهى مواد تافهة لم تدرّس لنا أصلاً، ولم نلتق بهؤلاء الأشخاص الذين ارتضوا أن توضع أسماؤهم على هذه الجداول لقاء ثلاثين قطعة من الفضة!!

- وماذا عن فترة بداية عملك بعد المعهد ؟

كما هو واضح من ورقة دونتها لأسباب إدارية بعنوان «تعريف»* أنه لم يكن لى مستقرٌ فى حياتى العملية، فقد

تنقلت فى أعمال متناثرة بين الكتابة فى الصحف والتعامل مع الإذاعة والتليفزيون والكتابة للسينما والاندفاع فى مشروع إنشاء فرقة غنائية باسم كورال الطليعة مع الموسيقار الراحل عبد العظيم عويضة والمايسترو عادل كامل والموسيقار علاء الدين مصطفى أستاذ الهارمونى بالكونسرفتوار حالياً، لتغنى أشعار الشعراء الفلسطينيين فى الداخل إسرائيل حاليا الذين بقوا هناك بعد كارثة ١٩٤٨م ومنهم توفيق زيّاد ومحمود درويش وسميح القاسم وغيرهم وهذه تجربة ذات طابع مركب متعدد الأوجه ويطول شرحها، وحين وصلت الفرقة إلى ذروتها تمكننا من عمل احتفال بانطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة ضد العدو الإسرائيلى فى المسرح القومى أول يناير ١٩٧٠وليلتها ألقى الممثل الكبير عبدالله غيث قصيدة طويلة لسميح القاسم بعنوان يا مجلس الأمن الموقر، كما شاركت الفنانة إنعام الجريتلى وصحبها الممثل محمود ياسين وألقت الممثلة الناشئة آنذاك فردوس عبدالحميد قصيدة لمحمود درويش، كذلك قدم كورال الطليعة عدداً من القصائد المغناة من أشعار اختارها ولحنها الملحن عبدالعظيم عويضة وتوزيع علاء الدين مصطفى وقيادة عادل كامل كى يؤديها مجموعة من الشباب الناشئ المتحمس من طلبة وطلاب معهد الموسيقى العربية وكلية التربية الموسيقية بالزمالك. كانت هذه الليلة الرائعة تقريبا هى آخر ليالى كورال الطليعة بعد أن فوجئنا بقبول عبد الناصر لمبادرة روجرز التى لا تختلف كثيرا عن اتفاقية كامب ديفيد بأننا ممنوعون من دخول استديو فتح المخصص لهم بمبنى الإذاعة

القديم بالشريفين، وممنوعون من أداء أغانينا فى أى مكان! بعد أن كنا قد قدمنا بعض برامجنا فى نقابة الصحفيين واتحاد طلاب فلسطين ونادى نقابة الزراعيين وقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة فى برنامج أضواء المدينة وغير ذلك من الأماكن، هنا أدركنا أن ضرام الحركة الوطنية قد أوشك على الانطفاء.

- طالما أنت بهذا الوعى بالعلاقة الوطيدة بأساتذتك لماذا لم تتفوق فى السنة الأخيرة؟ ولم يتم تعيينك كمعيد بمعهد المسرح؟!

فوجئت بمنعى من دخول الدور الأول بحجة تجاوزى لنسبة الغياب المحددة – هى حجة شكلية – كان لدى حينها وحتى الآن عشرات الردود الحاسمة بشأنها، ففى حين قام شخص ما بتدبير وقيعة بينى وبين أستاذى الدكتور محمد القصاص وكان هو المسئول عن تخريج دفعتي، والعجيب أن بعض العناصر التى كانت تزورنى فى منزلى وتقيم وتأكل وتشرب وتسمع وتغترف منى الكتب، كانوا يعملون لحساب جهات الأمن، هؤلاء حققوا مكاسب ونجاحات وبعثات وسفريات لدرجة أن لقاءً تم مصادفة فى جلسة اجتماعية عابرة بينى وبين أحد كبار ضباط أمن الدولة وهو إنسان مهذب ومحترم اسمه طوسون محرز وفوجئت به يتذكرنى (هذا اللقاء تم بعد تخرجى بسنوات) فقال لى يطيّب خاطري: لو كنا صدقناهم– يقصد الذين كانوا يبلغون عنى أشياء حقيقية وأشياء كاذبة– لكنا طيّرنا فوق رأسك الطائرات وسارت خلفك الدبابات!!، وكانت نظرة عينه تنم عن رثاءً وعطف، ولكننى لم أتوقف

عنـد مثـل هـذه الأمـور، لأننـى أعـرف هـؤلاء الأشـخاص جيـدا مـاذا فعلـوا ومـاذا حققـوا علـى حسـابي، غـير أننـى لا أملـك الآن إزاءهـم سـوى الاحتقـار.

- وكيف افلتت منهم ؟

بمجـرد أن علمـت أن عميـد المعهـد مُصـرٌ علـى قـراره بمنعـى مـن دخـول امتحـان الـدور الأول، كـى يحرمنـى مـن التقديـر وكانـت درجتـى مرتفعـة، ورغـم تلـك الأحـداث التـى كانـت تحـدث حـولى فإننـى توجهـت مباشـرة إلى الأسـتاذ الدكتـور العـالم الكبـير مصطفـى سـويف رئيـس الأكاديميـة حينـذاك وطلبـت مقابلتـه فناقشـنى فـى شـكوتى بتدقيـق عسـير ومراجعـة متكـررة، وكان يميـل إلى الإدانـة والتشـكيك فـى سـلامة موقفـى، فمـا كان منـى إلا إن أعطيتـه علامـات وإشـارات محـددة يسـتطيع أن يتثبـت منهـا مـن صـدق روايتـى وسـلامة موقفـى بنفسـه، فأمرنـى بالعـودة إليـه بعـد أسـبوع أو عشـرة أيـام، وحـين طلبـت الإذن بالدخـول إليـه فوجئـت باسـتجابته الفوريـة وأجلسـنى أمامـه قائـلا: «لقـد تثـبّت مـن صحـة كلامـك ودقتـه بـل وأكثـر منـه، وسـوف أحصـل علـى قـرار مـن مجلـس الأكاديميـة بدخولـك الـدور الثانـى لأنهـم كسـبوا الوقت وانتهـت امتحانـات الـدور الأول»، الأمـر الـذى جعلنـى أتعامـل مـع المسـألة بعـدم اهتمـام، وكنـت فـى ذلـك الحـين قـد أرسـلت بعـض البرقيـات لعـدد مـن الشـخصيات المسـئولة فـى النظـام الناصـرى آنـذاك فحوّلوهـا إلى مكتـب ثـروت عكاشـة وزيـر الثقافـة فناقشـهم فـى اجتمـاع مجلـس الأكاديميـة وقـال بالحـرف الواحـد لعميـد

المعهد أنه لا يستطيع أن يثق فى قراراته ثم أوقفه عن العمل . ولكن يبدو أن هذا الشخص كانت له وسائله واتصالاته التحتية والفوقية معاً، حتى أننا فوجئنا بتعيينه رئيساً لهيئة المسرح كغيره من الشخصيات والوجوه التى عاشت فى كنف النظام الشمولي، ومازال هذا الوضع قائماً حتى اليوم، فنحن نُحكم بهذا الأسلوب الإدارى العلوى الأمنى الشمولى وفقاً لنظرية أهل الثقة لا أهل الخبرة أو نظرية الأمن الثقافى !!.

بعد هذا عرض علىَّ الدكتور مصطفى سويف ومن بعده الدكتورة لطيفة الزيات ثم المفكر الكبير الراحل شكرى عياد أن يعوضونى عن خسارتي، ولكن الأبواب كانت قد ارتجت فى روحى فلم يعد لدى الرغبة فى مجرد النظر إلى أبنية المعهد والأكاديمية كلها من الخارج فلم أفكر فى التسجيل بالدراسات العليا طمعاً فى بعثة أو شهادة رخيصة، أصبحت الآن بأيدى الصبية والغلمان. وحتى حين أرادوا تكريمى لم أذهب إلى هناك ولم أتسلم تلك الأشياء التافهة التى يمنحونها للمكرّمين، وإذا كانت للذكرى فهى ذكرى سيئة.

الأمر الذى جعلنى أتجه إلى المسرح بعيداً عن ما يسمى بالمعهد العالى للفنون المسرحية وأكاديمية الفنون ...الخ.....الخ. غير أننى لاحظت ألوانا من التعقب والملاحقة بل والمطاردة سواء فى مجالات النشاط العملى أو فى اكتساب الرزق عن طريق العمل، ولدى فى هذا المجال أمثلةٌ كثيرةٌ منها أن أحدهم استطاع الانفراد بالإذاعية الكبيرة سامية صادق وطلب منها

بعض النصوص التى كتبتها لبرنامجها اليومى صباح الخير، وكنت أتعيّش من الجنيهات الزهيدة التى كنت أتقاضاها من مشاركتى فى هذا البرنامج، فما كان منه إلا أن خط خطوطاً حمراء على بعض ما كتبت، ليبين لها كيف كنت أمرّر بعض الأفكار والمقولات التى يمكن أن توضع تحت مظلة الاتهام بالشيوعية! هم لم يتركونى فى حالي، حتى أن أبواباً كثيرة للعمل ولإثبات الذات والكفاءة أوصدت فى وجهي، ومع ذلك لم أتوقف عن المحاولة بينما هم كانوا يتبعون سياسة الشطب والتصغير والتجاهل والاستبعاد .....الخ. وللأسف كان بعض من هؤلاء ممن قابلتهم فى معتقلات وسجون عبد الناصر! ولكن لغبائهم وقصر نظرهم لم يحسبوا أن يوما ما سوف أستطيع أن أملى على الورق هذه الحقائق التى تشينهم لو كان على وجههم شئ من الحياء.

وفى نوفمبر ١٩٦٩م وصلنى خطاب التعيين بالقوى العاملة حينها استدعانى رئيس مباحث أمن الدولة الضابط منير محيسن ليبلغنى بكرمٍ وأريحية شديدة زائفين، أنه لم يعترض على تعيينى موظفاً بالحكومة! وكان نصيبى أن أكون أخصائياً فى وزارة الشباب ثم بعد ذلك سعيت للنقل إلى رعاية شباب جامعة القاهرة كمشرف على الأنشطة المسرحية للطلاب، ومن ثم سعيت أكثر من مرة، للانتداب إلى هيئة المسرح تمهيدا للنقل، ولكن لظروف أمنية حدثت جعلت لجنة شئون العاملين ترفض طلبى للنقل النهائى إلى الهيئة، وكنت كل مرة أعود إلى عملى مشرفاً على النشاط المسرحى فى إحدى كليات جامعة القاهرة .

انعكست هذه الحياة العملية الوظيفية المضطربة على إيقاع حياتي ككل، ولمدة طويلة جداً وجعلت إنتاجي متعثراً وعملي مبعثراً ورزقي قليلاً ومكانتي محدودة ومهددة دوماً، فلم أستطع تحديد ما هو أساسي في حياتي أو ما هو ثانوي، ماذا أفعل؟ وماذا أحقق؟ فسلمت أموري إلى المصادفة وإلى مجموعة من العلاقات الشخصية، وهكذا تابعت إنتاج بعض المسرحيين وكتبت عنهم في المساحات المتاحة أو المكنة في بعض المجلات أو الصحف.

- هل تتذكر أفكاراً أو عروضاً أو مخرجين ؟

كان هاني مطاوع مخرجا في بداياته وكان مختلفاً ومتميزاً فقدم للمسرح الجامعي أعمالا لمعين بسيسو ونصاً قام بتركيبه من أوراق ومقترحات لنبيل بدران لما يسمى منتخب جامعة القاهرة حتى أنه دفع للساحة بمسرحيين مازالوا موجودين حتى اليوم مثل الممثل محمد متولى والمخرج سامى عبد الحليم وفتاتين أجادتا ثم اعتزلتا، فكتبت عنهم في روز يوسف و الأنوار اللبنانية ومجلة المسرح، حتى أن هذه الأوراق اعتمدت بين الوثائق والحيثيات التى بررت خروج هانى مطاوع إلى البعثة مرة إلى الاتحاد السوفيتى ومرة إلى الولايات المتحدة .

بعد ذلك ارتبطت بعروض المسرح الجامعى ككل، إما كعضو لجان اختيار العروض وتوجيهها أوعضو لجان تحكيم في المسابقات او كمنشئ و مخطط لفكرة مسابقة المسرح الصغير داخل جامعة القاهره و كان غرضى الأول من ذلك هو أن العروض داخل حرم الجامعه وفقاً للقانون لا تخضع للرقابة،

طمعاً فى مزيد من حرية التعبير للفرق التى تم تكوينها بين جماعات متجانسة فنياً و فكرياً من الطلاب – خلافاً للفرق التى تشرف عليها اتحاداتهم – وهى التى تساهم بعمل واحد كل عام فى المهرجان السنوى، أما الغرض الثانى فهو اقتحام دار العرض بكليتى التجارة و الحقوق اللتين كانتا قد أغلقتا بواسطة ما يسمى بالجماعات الإسلامية التى منعت النشاط المسرحى بحجة أن أعضاءها أذنوا للصلاة وصلوا فيها، و زعموا أن صحيح الدين يقول : إنه إذا ما استخدم مكان ما كمصلى فإنه لا يصلح للاستخدام فى أى عمل أو نشاط آخر، و بالفعل أتيتُ عملاً عنيفاً حين فتحت باب القاعتين عنوةً كى أدفع بمجموعات الشباب لممارسة إنتاج أعمال مسرحية طلابية بحتة شرط عدم الاستعانه بأى محترف من الخارج فى أى تخصص مسرحى . و من مسابقة «المسرح الصغير» لعبت أسماء مثل الممثل صلاح عبدالله وفتوح أحمد و آخرين.

ثم أنهيت عملى الوظيفى بجامعة القاهرة بوضع خطة كان الغرض منها تحرير النشاط المسرحى من اعتراضات الأمن أو بحجة أن ينحرف اليساريون أو الإسلاميون بالنشاط المسرحى إلى أعمال شغب سياسى أو فكرى أو صراع بين هذين التيارين، فما كان منى إلا أن اقترحت على الأستاذ الدكتور على المرسى بصفته مستشارا لرئيس الجامعة لشئون الأنشطة الطلابية أن يصبح برنامج المسرح بجامعة القاهرة لسنة١٩٨٧م وثيق الصلة بما يدرسه الطلاب بالكليات والأقسام، وكانت حجتى أن المسرح جزء من المناهج الدراسية فى الجامعات مثل مسرحية جاليليو

لبريشت أو علماء الطبيعة أو أونديـن لجان جيرودوو وغير ذلك، وركزت على أن تقيم جامعة القاهرة مهرجاناً لمسرح شكسبير، وهو أحد المقررات على قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة تمهيداً لتمرير المسرحيات الفرنسية لـ موليير وراسين وكورنىّ فى حالة إذا ما قامت اعتراضات جديدة من أى جهة فى العام التالى .

- يبدو أن هذه الفترة كان عنوانها اللامع هو الفنان هانى مطاوع فماذا تبقى من إنجازاته؟

عموماً أنا لى رأى فى موضوع البعثات وهو أن البعثات الطويلة فى بلاد بعيدة واقعها الحياتى والثقافى مختلف تماماً عن واقعنا المصرى، ففى ظنى أن الفنان المسرحى كائن اجتماعى يجب ألا يغيب طويلاً عن واقعه و جمهوره وعن حياة المصريين بكل ما فيها من معطيات ثقافية وأنثروبولوجية واجتماعية وسياسية، فمن هنا تكون منابعه أو مصادر إلهامه والقوى الموجهة إليها رسائله الفنية والفكرية، فبعدما عاد المخرج الفنان هانى مطاوع من بعثاته المطوّلة .. عاد ليتبوأ – بعد عزلة طويلة عن حياتنا – منصباً كبيراً هو رئيس قطاع الفنون الشعبية ولم يكن يدرى عنه أو عن كوادره أى شيء !! وفى ذات الوقت كان يفكر كيف يخرج من مصر إلى عُمان حيث إلنفوذ والمال ليغيب هناك سنوات طويلة، بل أصبح أيضا معداً ومخرجاً بالمراسلة!! تحت عنوان أنه دكتور فى المسرح !! فى حين أن عروضه التى قدمها بعد أمريكا وبعد عُمان ليس فيها شيء من ثقافته وموهبته التى أشرت إليها .